بين حرب الشكنات والمحاذير الاميركية بات التصعيد مستحيلاً ... فتوقّف القتال

بقلم: مصطفى مراد

يبدو انه بات ممكنا القول ، ومع كل التحفظات التي لا بد منها ، ان الازمة ، بشكلها الراهن ، قد بلغت نهايتها .

ان ما يجعلنا نصل الى هذا الاستنتاج هو اتضاح ان خط فرنجية ـ الجميل ـ شمعون قد وصل الى الطريق المسدود . وقد ترافقت مجموعة من الظروف والتطورات المحلية والخارجية لتؤكد استحالة مضي تحالف السلطة والفاشيست في تصعيد المعركة ، او حتى الابقاء على المستوى الذي بلغته مؤخرا .

انتصارات اليسار

اولا ـ خروج المقاومة والقوى الوطنية من التردد الذي اتسمت به مجابهتها للاحداث، واقدامها على توجيه ضربة عسكرية رادعة في الدامور والجية والسمدعيات كان لها اثر كبير جدا لدى قيادات اليمين وجماهيره . ولا باس هنا من القول ان « الفضل » في ذلك يعود الى اليمين نفسه الذي ارغم الجانب الوطني ـ بسبب مجازر الضبية والمسلخ والكرنتينا ـ على ركوب مركب العنف ، وكانت النتيجة الادم لمعركة الدامور ، على الصعيد الاستراتيجي ؛ اثبات استحالة وقوف الفاشيست في وجه الجانب الوطني حين يتخذ قرارا حاسما بالقتال وانا لم يتوفر للفاشيست دعم تام وغير متحفظ من جانب الجيش .

ثانيا ـ بلوغ مؤسسات السلطة ، وبالاخص الجيش ، مرحلة الاحتضار النهائي . فحين قبل الطرف الوطني (الفلسطيني ـ اللبناني) تحدي اليمين واكتسح منطقة الدامور ، فان الفاشيست كانوا يتوقعون ان ترد السلطة بانزال الجيش علنا ، وقد طلب شمعون بذلك صراحة وبالحاح والى درجة ان ابنه نعت الجيش بـ « الخيانة » لرفضه الاستجابة . لكن حسابات شمعون والجميل وفرنجية (وحتى القيادات العسكرية) كانت تغفل اهم الوقائع : فقد دخل الجيش في الايام الاخيرة مرحلة تنذر بالانحلال النهائي والانقسام الى جيشين . ومن المؤكد ان وحشية اليمين التي استفزت مشاعر الجنود الوطنيين والمسلمين ، ثم استقالة كرامي ، جعلت مثل هذا الانحلال حتميا .

وهكذا اتضح أن « انزال الجيش » لن يسفر عن دعم اليمين بقدر ما سيؤدي الى شق الجيش نهائيا وخسارة النظام آخر اوراقه ..

ثالثا ـ لم يسفر التسليم بان الافق المحلي مسدود ، وطرح التصعيد من طريق التدخل الخارجي ، عن اية نتيجة مختلفة . فقد اشارت الازمة في لبنان (بدمويتها واستمرارها لمدة طويلة ، وبالاخص بسبب وحشية وبربرية اعمال الفاشيين) الرأي العام الشعبي العربي الى حد ان كل الدول العربية كانت مضطرة الى ادانة اليمين الفاشي وحجب الدعم عنه . ذلك ان القاعدة السياسية الداخلية لكافة انظمة الاستسلام مهتزة الى درجة ان اي توتير اضافي يهدد بانفجارات شعبية بالغة الخطورة . وكانت قرارات مجلس الامة الكويتي المشرفة نموذجا اوليا على ما يتوقع حدوثه ... اما على الصعيد الدولي فقد تاكد ان الولايات المتحدة واسرائيل ، وان كانتا توفران الدعم والتاييد لاستمرار « حرب الاستنزاف اللبنانية » فانهما غير قادرتين على التدخل العلني ، وغير راغبتين في اي تصعيد دولي ـ ناهيك بالتقسيم ـ ، ستكون اولى نتائجه انهيار خط كيسينجر بمنجزاته الراهنة « المرجوة » . وهكذا سارعت اسرائيل الى نفي « مبالغات » شمعون حول دخول قوات سورية الى لبنان ! وهكذا اعلن كيسنجر ان بلاده ضد اي تدخل.

تجاه هذه الوقائع لا بد للنظام اللبناني من التسليم بضرورة ايقاف القتال .. او الانتحار . وهكذا امكن للوساطة السورية ان تجد استجابة سريعة بل وفورية . وكانت السرعة ضرورية بالاخص لاستباق تصور « حرب الشكنات » ـ من خارج الشكنات كما من داخلها !

ومن هنا يمكن القول ان الحل الفاشي وصل الى نهايته ، وان الايام المقبلة مرشحة لافتتاح هدنة طويلة .

بذلك يمكن القول ان الصمود الشعبي الحق الهزيمة بخط تحالف السلطة والفاشيست . وتسمح هذه الهزيمة بايقاف النزيف الدموي المريع الذي يتعرض له شعبنا ، وبكبح المخاطر العديدة التي كان لبنان والوطن العربي معرضا لها من جراء استمرار مؤامرة اليمين ..

لكن ذلك كله لا ينبغي ان يدفعنا الى المبالغة في حجم الانتصار الذي حققه الجانب الوطني في الصراع . فالواقع ان الثمن الذي تكبدته الجماهير « والانتصارات »التي احرزها اليمين ليست باشياء يجوز القفز عنها . هذا عدا ان جزءا اساسيا من العوامل التي فرضت ايقاف القتال كان من صنع قوى لا نملك القدرة على التاثير فيها ، او قوى معادية تماما .

لقد دفع شعبنا قرابة ٢٠ الف قتيل بين رجل وامراة وطفل وعشرات الالوف من الجرحى والمشوهين والمشردين . واحرقت ودمرت ونهبت الوف المنازل . وانقطعت ارزاق عشرات الالوف من العمال والموظفين الذين سيفدو قسم كبير منهم بدون عمل . هذا عدا ان الجماهير الفقيرة ستدفع ثمنا اضافيا سوف يتخذه على الارجح ، صورة غلاء اسعار اقسى من الماضي .

انتصارات اليمين

واسفرت الازمة كذلك عن تعميق وتاجيج المشاعة والصراعات الطائفية ، وادخلت جماهير جديدة الى حومة الاقتتال الديني . وينبغي ان نقر بان ذلك « انتصارات » هام جدا للقوى الرجعية في بلادنا ، وللقوى الاستعمارية كذلك ، وانه سيشكل عائقا كبيرا في وجه تطور الصراع القومي والطبقي في البلد .

واحرز اليمين انتصارا اساسيا اخر حين استطاع « استرجاع » قسم كبير من الجماهير المسيحية التي كانت قد بدات تتجه نحو الخط اليساري ـ الوطني ، وكان انتصاره مدويا بين عناصر الشباب المسيحي التي اكتسبت خبرة وتجربة فاشية لن تمحى بسهولة .

وفي الجهة المقابلة فان الاخطاء التي اتسم بها الخط السياسي للمجابهة الوطنية في الصراع ادت الى اعادة الاعتبار الى العديد من الزعامات « الاسلامية » الرجعية التي تشكل جزءا لا يتجزا من النظام السياسي الذي ترزح الجماهير تحت نيره منذ ايام الانتداب الفرنسي .

ان تلك جميعا عوامل لا ينبغي ان نغفل عنها لدى تقييم نتائج المعركة ، وهي ليست انتصارات في اي حال ...

وبالاضافة ، فان تراجع القوى الاستعمارية عن دعم مخطط الرجعية المحلية لتصعيد الاقتتال انما يعود الى حساباتها الخاصة ، والى تعارض عواقب التصعيد مع مجمل سياستها « العربية » ، وليس « تراجعا » قسريا . وبوضوح : ان الولايات المتحدة واسرائيل تخوفتا من نتائج اي « تدويل » على اوضاع النظام المصري والانظمة الاستسلامية الاخرى، ولم تشاءا ان تنسفا كل نتائج خط كيسينجر منذ سنة ١٩٧٣ . ويعني ذلك ان الولايات المتحدة ما زالت تملك امكانات حقيقية لتفجير الاوضاع في لبنان طالما ظلت الجماهير الشعبية منقسمة وفق اسس طائفية ، وطالما ظلت قوى اليمين والفاشية بمستوى قدراتها الحالي . ان القوة الوطنية لم توجه الضربة الحاسمة الى الفاشية . ولذا فان الفاشية سوف تظل ورقة مهمة في يد الامبريالية ـ ورقة صالحة دائما للاستعمال في ظل الاوضاع العربية الراهنة .

وثمة مسالة ينبغي ان نوليها اعظم الاهتمام . مسالة الخط السياسي ـ العسكري الذي اتبعته القوى الوطنية في الصراع . فهل من يجروء على انكار هذا الخط لم يكن قادرا على تعبئة الجماهير الوطنية تعبئة حاسمة ، وانه لاقى تذمرا مسموعا جدا من اوسع اوساط الشعب ؟ وهل نتجنى على الواقع اذا قلنا ان الخط الوطني اتسم بالكثير من التردد والارتباك على الصعيدين العسكري والسياسي خاصة السياسي ، حيث نجد نموذجا طريفا في تسابق الصحف الوطنية على التحليلات التي تستنتج ان الجميل بطل التصعيد وشمعون بطل الاعتدال ، ثم تعود بعد اسبوع لتكتشف ان الشيخ بيار مظلوم وانه « ضحية » التصعيد الشمعوني ؟؟) . وان هذا التردد ، وهذا الارتباك ، اتاح لليمين ان يظل محتفظا بالمبادرة حتى الاسبوع الاخير من القتال وجعله يحقق انتصارات لا تتفق مع قواه ومع ميزان القوى الفعلي ؟ ثم ان الممارسة القتالية للقوى الوطنية اتسمت بعيوب ونواقص كثيرة ينبغي ان تلقى من جميع الوطنيين والتقدميين دراسة متانية كجزء اساسي من اي تقييم للازمة . ان مسائل القدرات القتالية ـ اي التدريب والخطط العسكرية ، هذا عدا عن الساوك السياسي والاخلاقي للمقاتلين ينبغي ان تتعرض لحرارة النقد .. والنقد الذاتي .

كيف نفهم التسوية الاخيرة

وتبقى قضية التسوية الاخيرة بنقاطها السياسية والعسكرية . لنسارع اولا الى القول ان التسوية تلقى الارتياح من جانب اغلبية الشعب لانها تعني ايقاف نزف الدماء المخيف الذي بلغ حدودا لا عقلانية في الاشهر الاخيرة ، ولانها تعني ابعاد شبح المجاعة عن مئات الالوف من الناس الفقراء .

ولكن هذا الارتياح الشعبي لوقف المجازر لا بد ان يطرح السؤال الآخر : هل كان ما تحقق من « مطالب » يستحق هذا الثمن الفادح الذي دفعته الجماهير من لحمها ودمها ؟ هل تساوي حفنة اضافية من النواب « المسلمين » ارواح الوف الشهداء وكل هذا الدمار والتشريد ؟ وماذا يعني تعزيز صلاحية رئيس الوزارة ان على صعيد تغيير طبيعة النظام اللاوطني والرجعي او من زاوية مصالح وكرامة الجماهير ؟ وما الى ذلك من « إصلاحات » لا تغير شيئا في جوهر النظام الحالي ، عدا انها تظل ، بسبب هشاشتها ، عرضة للاندثار مع اي اختلال لصالح اليمين في ميزان القوى .

لكن « الاصلاحات » التي تحققت وجه خطورة آخر . ان الطابع « الاسلامي » للتعديلات الطفيفة المستحدثة يعني طمس الطابع الوطني والقومي والطبقي للصراع وتكريس الوجه المتخلف والديني والمعادي للتقدم . وذلك بحد ذاته انتصار لليمين ، سواء منه الذي نادى بالتذابح الطائفي او الذي وحد في الدفاع عن مطالب الطائفة وسيلة لانقاذ سمعته المنهارة في نظر الجماهير .. وهو استهانة بدماء الذين قاتلوا وكافحوا واستشهدوا من اجل لبنان عربي وتقدمي ومتحرر من مخلفات العصور العثمانية ومن تركة الانتداب . وسيكون لهذا الوجه اثر كبير في تكريس الوعي الطائفي وفي اعاقة نمو الوعي الوطني والثوري سواء في صفوف الجماهير الاسلامية او المسيحية .

ان ما تحقق من « اصلاحات » لا يرقى ابدا الى مستوى الصراع الشامل والدموي الذي شهدته البلاد في الاشهر العشرة الاخيرة . ولذا فان التسوية لن تكون سوى مؤشر لانتقال الصراع ، بقضاياه الاساسية كلها ، الى مرحلة جديدة قد يغلب عليها الطابع السلمي او قد تكون مزيجا من الصراعات السلمية والعنيفة . وسوف يكون للتطورات التي ستشهدها المنطقة العربية اثر هام في وجهة وكيفية تطور الصراع في المرحلة المقبلة .

والمهم الآن هو ان الجماهير العربية في لبنان التي خاضت تجربة كفاحية قاسية قادرة على ان تستفيد من تجاربها القتالية والسياسية لتعيد صنع الادوات السياسية والعسكرية التي ستتولى قيادة الكفاح الوطني والطبقي في المستقبل .

■